وهو سبحانه القائل عن النار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

-إذن فالعقوبة نفسها حريصة على أن تنفذ إلى من أساء . ولذلك يلح العذاب فى أن يمس الذين فسقوا . ويأتى الحق هنا بكلمة « المس » لحكمة ، ذلك أن عقوبة الله لا تقارن بعقوبة البشر .

فالإنسان يعاقب إنساناً بمقياس قدرته وقوته ، وليس لأحد من الخلق أن يتمثل قدرة الله فى العذاب ، ولذلك يكفى المس فقط ، لأن التعذيب يختلف باختلاف قدرة المعذِّب ، فلو نسبنا التعذيب إلى قدرة الله لكان العذاب رهيباً لا طاقة لأحد عليه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

و« قل » - كما نعلم - هى أمر من الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرسول يبلغ ما أمر به الله ، وكان يكفى أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا أقول لكم عندى خزائن الله . لكنها دقة البلاغ عن الله ، إنّ القرآن توقيفى بمعنى أن كل كلمة فيه نزلت من الله كما هى وبلغها الوحى الأمين لسيدنا رسول الله ، وبلغها لنا صلى الله عليه وسلم كما هى ، ويدل ذلك على أن أحداً لا يملك التصرف حتى فى اللفظ ، بل لابد من أمانة النقل المطلقة .

وأبلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحق قد أرسله هادياً ومبشراً ونذيراً بآية دالة على صدق البلاغ عنه وهى القرآن . وكان يجب على مَن يستقبل هذا البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يستقبله بحق فلا يطلب منه إلا ما يتمشى مع الوصف الذى ادعاه صلى الله عليه وسلم لنفسه . فليس من حق أحد أن يطلب من الرسول آيات غير التى أنزلها الله ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يدَّع إلا أنه مبلغ عن الله ، فيجب أن تكون المقابلة له فى إطار هذا الادعاء .

وقد تجاوز الكافرون ذلك عندما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات أخرى ، كتفجير بعض الأرض ينابيع مياه ، أو أن يكون له بيت من زخرف ، ولذلك يوضح له الحق سبحانه أن يبلغهم أنه لا يملك مع الله خزائن السموات والأرض ، فكيف تطلبون بيوتا وقصورا ، وكيف تطلبون معرفة الغيب حتى تقبلوا على النافع وتتجنبوا الضار ؟. ألا يكفيكم المنهج الإلهى الذى يهديكم إلى صناعة كل نافع لكم ويجنبكم كل أمر ضار بكم ؟ ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقل لهم إنه يعلم الغيب . وهو بشهادتهم هم يقولون عنه ما جاء بالقرآن الكريم :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ﴾

(سورة الفرقان)

لقد سخروا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطالبوا أن تكون له آيات أخرى ، وتساءلوا كيف يمكن أن يزعم أنه رسول وهو يأكل الطعام كما يأكلون ، ويغشى الأسواق لكسب العيش كما يفعل البشر ، ولو كان رسولاً لكفاه الله مشقة كسب العيش ، ولأنزل إليه مَلكاً يساعده فى البلاغ عن الله ، أو يلقى إليه الله من السماء بكنز ينفق منه ، أو تكون له حديقة غناء يأكل من ثمارها .

هذا ما قاله كبار المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وأرادوا أن يصدوا الناس عن الإيمان بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرة يتهمونه بأنه مسحور ، ومرة بأنه مجنون ، وثالثة بأنه يهذى ، ورابعة بأنه كذاب ، وخامسة بأنه يتلقى القرآن

من أعاجم ، ويدحض الحق كل هذه الأكاذيب وكل تلك الافتراءات التي ضلوا بها وأضلوا بها سواهم . إنه صلى الله عليه وسلم رسول من الرسل :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

إن الرسل من قبلك يا رسول الله كانت تأكل الطعام ، وتكسب العيش من العمل ويترددون على الأسواق ، فإذا كان المشركون يعيبون عليك ذلك ويحاولون إضلال الناس بكل الأساليب ، فأنت ومن معك يا رسول الله من المؤمنين سيكتب الله لكم النصر ويجزى كُلًّا بما عمل . ثم إن الآيات التي يطلبها المشركون من رسول الله كانت كلها تعنتا ؛ فهو لم يقل لهم : إنه ملك . لقد قال لهم : إنه رسول مبلغ عن الله ، وكل ما يؤديه هو صدق الأداء عن الله ، فكيف يطلبون منه أشياء لا تتعلق إلا بملكية الله لخزائن الأرض ؟ وكيف يطلبون منه أن يعلمهم الغيب ؟ وكيف ينتقدون أنه رسول وبشر يأكل ويتزوج ويمشى في الأسواق ؟

إن كل تلك الأقوال دليل التعنت ؛ لأنهم قد طلبوا أشياء تخرج عن مجال ما ادعاه رسول الله لنفسه من أنه رسول مبلغ عن الله ، إنهم طلبوا الخير النافع والينابيع التي تجرى ، والجنات والقصور ، وأشياء كلها ليست في مقدور رسول مبلغ عن الله ؛ لأن الذى يهبها هو الله سبحانه وتعالى .

وكلمة « خزائن » هذه مفردها « خِزانة » وهى الشيء الذى يكنز فيه كل نفيس ليخرج منه وقت الحاجة . ولا تقل : خِزانة إلا لشيء جعلته ظرفاً لشيء نفيس تخاف عليه من أن تخرجه في غير أوانٍ وزمان إخراجه . وخزائن الأرض كلها يملكها الله ، فهو سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فالحق جاء بالقضية الكلية ، وهى أن أسرار الله ونفائسه فى الكون هى بيد الله فى خزائنه ، وهو سبحانه يجليها ويظهرها ويكشفها لوقتها . كيف ؟ إن الحق سبحانه وتعالى تكلم عن بدء الخلق ، وتكلم عن خلق السموات والأرض ، وتكلم عن هذا الموضوع كلاماً مجملاً تفسره الآيات الأخرى . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ (١١) ﴾

(سورة فصلت)

يأمر الحق رسوله أن يبلغ هؤلاء المشركين كيف يكفرون بالله الذى خلق الأرض فى يومين وكيف يجعلون له شركاء وهو الخالق للأرض التى هى مناط الحركة لابن آدم . لقد خلق فيها سبحانه ما يقيت ابن آدم وتقوم به حياته إلى أن تقوم الساعة . والقوت ـ كما نعلم ـ هو الذى يبقى للإنسان حياته وإن أراد الترف فلا بد له من الطموح فى الحياة . وهو سبحانه جعل فى الأرض رواسى ـ أى جبالاً ـ وبارك فى الأرض وفى الرواسى . ثم جاء بتقدير الأقوات بعد ذكر الرواسى وهى الجبال ، فكأن الجبال فى حقيقة أمرها هى مخازن القوت . وقد يقول قائل : كيف ذلك ؟

ونقول : إن الواقع قد أثبت هذه الحقيقة ؛ فأنت إن نظرت إلى الأنهار التى تجرى ، لوجدتها تتكون من الماء الذى تساقط من الأمطار على الجبال ، فالمياه المكونة من ذرات صغيرة دقيقة تنزل على هذه الجبال لتفتتها ، وكأن المياه هى « المبرد » الذى يزيل من سطح الجبال هذه الرمال المليئة بالعناصر الغذائية للأرض ، وهو ما نسميه نحن « الغرين » ، والغرين ـ كما نعلم ـ هو ما ينزل مع المياه من سطوح الجبال إلى مجرى النهر ، وباندفاع المياه فى مجرى النهر تنتقل المادة الخصبة إلى الأرض ، وتتكون تلك الطبقة الخصبة التى تتغذى منها النباتات . ولو شاء الحق سبحانه وتعالى لجعل سطح الأرض كله مستوياً ، وفيه الخصوبة التى تنبت النبات .

لكن حكمته سبحانه شاءت أن تصنع للنبات غذاءه بهذه الطريقة . فأنت إذا

ما نظرت إلى النبات وجدته يختلف من نوع إلى نوع فى أسلوب امتصاصه للعناصر الغذائية اللازمة له ، فهناك نوع من النبات يمتص غذاءه من عمق نصف المتر ، ونوع ثانٍ يأخذ غذاءه من عمق المتر ، وهكذا . وإن لم نأت للأرض المزروعة بسماد أو مخصبات أو غرين ، فإن الأرض تضعف ؛ لأن الحق يريد لعملية الزراعة أن تستمر وتمتد وتتوالى ، فجعل الجبال مكونة بشكل صُلب ، وتمر على الجبال عوامل التعرية من حرارة وبرودة وتشققات ثم ينزل عليها المطر فيذيب من سطوح الجبال بعضاً من تلك المواد الغذائية اللازمة للأرض ، تنتقل هذه المواد الغذائية عبر المياه إلى الأرض ، وبهذا يتوالى الإمداد بالخصب من الجبال إلى الأرض . وهكذا نجد أن الجبال فى حقيقتها هى مخازن لخيرات الله .

وهل مقومات الحياة زرع فقط ؟ لا ؛ لأنك إن نظرت إلى نموذج مصغر للكرة الأرضية ، ستجده يشبه البطيخة الكبيرة ، وإن جئت لتقطع مثلثاً من محيط القشرة إلى مركز البطيخة ، وجعلت هذا المثلث يشبه الهرم ، ثم أخذت منها مثلثاً آخر من أى ناحية سواء أكان من ناحية الأرض الخصبة ، أم من البحار أم من الجبال أم من الوديان ، أم من الصحارى ، ثم نظرت من بعد كل ذلك إلى الخير المطمور فى كل جزء من هذه الأجزاء لوجدته مساوياً للجزء الآخر . لماذا ؟ لأن الحياة لا تعتمد على ألوان محصورة من القوت ، ولكنها تحتاج فى عمارتها إلى أدوات ومواد الحضارة من حديد وبترول ومنجنيز وغير ذلك من كنوز الأرض التى تقوم عليها الحضارة .

إننا نجد هذه الخيرات مكنوزة إما فى الجبال وإما فى الصحارى . ولكن كل خير من هذه الخيرات له ميعاد ، وله ميلاد . وأنت لو قست ووزنت الخيرات الموجودة فى أى مثلث هرمى من الأرض من مركزها إلى محيطها ، وقارنتها بوزن قياس الخيرات الموجودة فى مثلث هرمى آخر مساوٍ له من الكرة الأرضية نفسها ، لوجدت الخيرات متساوية فى كل من المثلثين . ولكن لكل لون من هذه الخيرات ميلاد وميعاد .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فما يقال له شىء ، فإن له خزانة عند الله يُنْزِلُ منها سبحانه بقَدَر . ونرى ذلك من قمة الوجود ، وهو العقل ، إن العقل شىء ، وله خزائن عند الله ، فما كان موجوداً من أفكار من عشرة قرون لدى البشرية جميعا لا يقاس بكمية الأفكار التى يمتلكها.

العقل الجمعى للعالم الآن ، ذلك أن كل جيل قد استفاد مقدماتٍ من أفكار الجيل السابق له ليصل إلى نتاج جديد . إذن فهناك خزائن للأفكار وللخواطر . وكذلك كل شيء فى الوجود له عند الله خزائن لا ينزل منها إلا بِقَدَر معلوم : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

وساعة يريد الحق أن يظهر ميلاد سر ما ، فهو سبحانه يهيىء الأسباب لذلك . وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ كنا قديما نقطع الأخشاب من الأشجار لنصنع منها وقوداً ، وكنا بعد أن نقطع الأخشاب نخشى عليها من الفساد ، لذلك وضع الحق بعضاً من إلهاماته للعقل البشرى حتى يستطيع تحويل الخشب إلى فحم ليضمن الإنسان صيانة الخشب ، وليضمن وجود مصدر للطاقة هو الفحم النباتى . ومن بعد ذلك اكتشف الإنسان الفحم الحجرى . ومن بعد ذلك اكتشفنا البترول ، كل ذلك من خيرات الطاقة كان مكنوزاً فى الأرض ، ولم يكتشفه الإنسان إلا بعد أن أعطاهم الله الاستعداد لاستقبال هذا الخير ، وسيظل عطاء الله قائماً إلى أن تقوم الساعة . فمع الفحم دخلنا عصر البخار ، ثم دخلنا عصر الكهرباء ، ثم دخلنا عصر الذرة .

وكل هذه الأشياء كان لكل منها ميلاد ، ولكل منها مكان فى خزائن الله ، وعندما ينزل الله أى خاطر من الخواطر على عبد من عباده فإن العبد يأخذ بالأسباب ويكتشف ميلاد السر المكنوز . وكل لاحق يأخذ من خير السابق ويبنى عليه ، وهكذا ينمو الخير دائماً .

والأشياء فى خزائن الله إما أن تكون مطمورة وإما أن تكون محكمة إحكاماً رقمياً ، وعلى سبيل المثال ، هذا هو الراديوم الذى اكتشفته « السيدة كورى » ، أظهره الله على يديها فى وقت الحاجة إليه . وكان العلماء قبل اكتشاف الراديوم يعلمون أن هناك عنصراً لم يعرفوه له تركيب ذرى معين ؛ لأن عناصر الكون مصنوعة بحكمة جليلة كبيرة . وقد ينزل الشيء شائعاً فى غيره ، ومثال ذلك أن تقطف وردة وتستمتع بأريجها وجمال منظرها إلى أن تذبل ، وقد يغيب عنك أن الوردة مكونة من تركيب معين ، فالرطوبة هى التى تعطى الوردة نضارة ، وكل شيء فى الوردة هو من مادة الأرض ، وعندما تذبل الوردة فهى تعود إلى عناصر الأرض بعد أن تتبخر منها المياه وتذهب كبخار مع غيرها من المتبخرات إلى السحاب الذى تحركه الرياح فيسقط مطراً .

وهكذا نجد أن قطرات المياه التى كانت فى الوردة تبخرت وانضمت إلى السحاب ، قد عادت مرة أخرى إلى الأرض من خلال المطر ، ومادة الماء نفسها لم تزد ولم تنقص منذ أن خلق الله الخلق فى هذا الكون ، ونحن ننتفع بهذا الماء ، وعندما ينتهى انتفاع إنسان بجزء من المياه فالماء يعود من خلال عمليات أرادها الله إلى خزانة الماء فى الكون . وليسأل الإنسان منا نفسه : كم طناً من الماء قد شربته فى حياتك ؟ وستجد أنك قد شربت وانتفعت بمئات أو بآلاف من الأطنان ، وخرج منك الماء فى شكل عرق أو بول أو مخاط ، أو غير ذلك . وكم بقى من الماء فى جسمك ؟

إنها نسبة قد تزيد على تسعين بالمائة من وزن جسمك أياً كان الوزن ، ومن بعد أن يأتى أجلك كما قدره الله ، فتتبخر كمية المياه التى فى هذا الجسم لتنضم إلى السحاب ثم تنزل مع المطر . إذن فكمية المياه لم تنقص فى الكون ولم تزد ، وهذا ما نسميه الرزق المخزون بالتحول ، تماماً كما تبخرت كمية المياه التى فى الوردة ، وتبخرت رائحتها فى الجو وكذلك مادتها الملونة ذابت فى الأرض . وساعة نزرع شجرة ورد تأخذ كل وردة لونها من المواد الملونة المخزونة فى الأرض . إذن فكل شىء إما مخزون بذاته فى خزائن الله ، وإما مخزون بعناصره المحولة إلى غيره . وكل الوجود على هذا الشكل . وحركة الحياة هى بين الاثنين .

إن الإنسان ـ على سبيل المثال ـ من لحم ومن دم ، والبقرة أيضاً من لحم ودم ، ويموت الإنسان ليعود إلى الأرض ، ويستفيد الإنسان من الحيوان ، وتعود كل مادة الحيوان إلى الأرض . وتدخل العناصر فى دورة جديدة . إذن هى خزائن للحق ، إما محولة ، وإما خزائن حافظة ؛ فالشىء الذى نستنبطه بحالته هو فى خزائن حافظة ، والشىء الذى يدور فى غيره ويرجع إلى الأصل هو فى خزائن محولة .

ومن رحمة الحق بالخلق أنه لم يملك خزائن الأرض أو السموات لأحد من البشر حتى لا يستعلى إنسان على آخر . ولم يعط الحق حتى للرسل أى حق للتصرف فى هذه الخزائن ؛ لأن الرسل بشر ، وقد احتفظ الحق لنفسه بخزائن الأرض والسموات ليطمئننا على هذه الخزائن . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

الحق سبحانه يعلم أن الإنسان مطبوع على الحرص الشديد أو البخل ، وهو سبحانه الغنى الكريم ؛ لذلك ينزل ما يشاء من خزائنه لعباده حتى ينتفعوا . ولم يدع الرسول صلى الله عليه وسلم الخزائن لنفسه ، فكيف يطالبه المشركون بما فى خزائن الله ، وهو صلى الله عليه وسلم يوضح ذلك ويوضح أيضاً أنه لا يعلم الغيب :

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنعام)

وهو بذلك صلى الله عليه وسلم ينفى عن نفسه أى صفة من صفات الألوهية ؛ لأن الخزائن الكونية هى فى يد الله ، وكذلك ينفى عن نفسه علم الغيب . ولقائل أن يقول : ولكن ماذا عن الأشياء والأحداث التى كان يخبرنا بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهى أحداث مستقبلية ؟

ونقول : إن ذلك ليس علماً بالغيب ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم مُعَلَّم غيب ، أى أن ربنا سبحانه وتعالى قد علمه ، ومثال ذلك قول القرآن الكريم :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن الحق سبحانه هو الذى علَّم رسوله صلى الله عليه وسلم تلك الأخبار التى كانت من أنباء الغيب ، ويحسم الحق هذه المسألة عندما يقول :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الجن)

فسبحانه وتعالى هو وحده عالم الغيب ، ولا يُطْلِع أحداً من خلقه على الغيب.

إلا الرسول الذى يرتضيه الله ليخبره ببعض من الغيب ، ويحفظ الحق رسوله فى أثناء ذلك بملائكة حفظة تحميه من تعرض الجن لما يريد إطلاعه عليه لئلا يسترقوه ويهمسوا به إلى الكهنة قبل أن يبلغه الرسول وحتى يصل الوحى إلى الناس خالصا من تخليط الجن وعبثهم .

إذن فالرسول مُعَلَّم غيب وليس عالم غيب . والغيب ـ كما نعلم ـ هو ما غاب عن الحس ، ولم توجدْ له مقدمات تدل عليه ، فهناك أشياء تغيب عنك ولكن لها مقدمات ، فإن التزمت بالمقدمات من بدايتها يمكنك أن تصل إلى النتيجة . مثال ذلك : إن أعطيت تلميذاً مسألة حسابية ليقوم بحلها ، وعندما يحل التلميذ هذه المسألة فهو لم يعلم الغيب ، ولكنه أخذ المقدمات والمعطيات ، وبحث عن المطلوب ، وأخذ يرتب المعلومات ليستنبط منها النتيجة .

وكذلك حال الذين اكتشفوا أسراراً فى الوجود ، أعلموا غيباً ؟ لا ، إنهم فقط استخدموا بعضاً من المقدمات التى كانت موجودة أمامهم فى الكون ، وتوصلوا إلى نتائج جديدة ، صحيح أن هذه النتائج كانت غائبة عنا ، ولكن مقدماتها كانت موجودة . وكذلك كل النظريات الهندسية ، كل نظرية نجدها تعتمد على سابقتها ، وكل نظرية ـ حتى أعقدها وأصعبها ـ هى ملاحظة لأمر بدهى فى الكون . وكل علم من العلوم له مقدمات إن بحث فيها باحث فإنه يصل إلى النتائج الجديدة ، وهذا ما نسميه « غيبا إضافيا » ، أى كان غيباً فى وقت ما لكنه غير غيب فى وقت آخر ، ولذلك يُنسب هذا العلم إلى البشر دائماً ، ولنقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

والإحاطة بالعلم كلها لله ، وهو سبحانه الذى يأذن لبعض من خلقه بالإحاطة ببعض من هذا العلم ، وكل سر من أسرار هذا الكون لا يولد إلا بإذن منه سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه يوفق العلماء أن يبحثوا فى المقدمات ليصلوا إلى النتائج . ولكن ماذا عن العلم الذى لا توجد له مقدمات ؟ هذا من الغيب المطلق الذى لا يظهره الحق لأحد إلا لمن ارتضى من رسول .

أقول ذلك حتى لا يخطىء أحدنا فيظن أن إخبار إنسان لإنسان بمصير شىء ضاع

منه هو معرفة للغيب ، فقد يكون هذا غيباً بالنسبة لصاحب الشيء الضائع ، ولكنه ليس غيباً بالنسبة للص الذى سرقه ، ولا هو غيب بالنسبة للشخص الذى أخفى المسروقات ، ولا هو غيب بالنسبة للجان المحيطين باللص ، إذن فهذا ليس غيباً مطلقاً ، ولكنه غيب معلوم للغير . إذن فخزائن الحق سبحانه وتعالى ملأى بكل أنواع الخير التى تؤدى للإنسان مهمة البقاء فى الأرض سواء من جهة الضرورات أو الأشياء الترفية .

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنعام)

إذن فالرسول صلى الله عليه وسلم ينفى عن نفسه بقول الحق ثلاثة أشياء : منها شيئان ينفيان الألوهية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى ملكية خزائن الكون ، وعلم الغيب ، وشيء ثالث وهو أنه ليس مَلَكاً ، فهل يعنى ذلك أن المَلَك أرفع من النبى ؟ لا ، ولكنهم قالوا له : إنه يمشى فى الأسواق ويتكسب العيش بالعمل ، والمَلَك لا يفعل ذلك . ولكن الرسول بالطبع أرقى منزلة من المَلَك ؛ لأنه يقوم بهداية الإنس والجن ويتبع ما يوحيه إليه مِلك الملوك ، وهو الحق سبحانه وتعالى : « إن أتّبعُ إلا ما يوحى إلىّ » .

إنه من فرط ارتفاعه فى الصدق المبلغ عن الله يعلن حقيقته صلى الله عليه وسلم بأنه من البشر ، والبشر ابن أغيار ، ويعلم شيئاً ، ويجهل شيئاً ، ومن مصلحة المرسل إليهم أن يكون الرسول متبعاً لا مبتدعاً ، ذلك أنه ينقل لهم تكاليف الخالق بألفاظها لا أفكار البشر التى قد تتغير أو تتبدل . فلو ابتدع لابتدع فى إطار بشريته ، وفى ذلك نزول لا ارتقاء ، لكنه فى الاتباع يأتى بالارتقاء للبشر ؛ لأنه يتبع ما أوحى به الإله الذى اصطفاه رسولاً . ولذلك كانت الأمية فى رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفاً له ولنا . أما أُمّيّة الإنسان العادى فهى عيب ، إنما أُمّيّة محمد صلى الله عليه وسلم هى الكمال .

و« أُمّىّ » ـ كما نعلم ـ تعنى أنه كما ولدته أمه ، لم يأخذ ثقافة ولم يتعلم من أحد من البشر ، لكن علمه وثقافته فوقية كلها . إن ذلك وحى من الله ، وهو صلى الله عليه وسلم عندما يعلن أنه نبى أمى ، فهذا معناه أن كل ما دخل فى ذهنه لم يأخذه عن أحد من خلق الله ، وإنما كل ما جاء إلى هذا الذهن قد أخذه رسول الله عن الله .

وهكذا تكون أميته شرفاً لنـا ، ولكن الأمية فينا ـ نحن المسلمين ـ تخلف يجب أن نعمل جميعاً على القضاء عليها : « إن أتّبعُ إلا ما يوحى إلىّ » . والرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى بل يبلغ ما جاء به الوحى .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنعام)

وساعة يأتى الحق بقضيـة يستخدمها كمثل ، فلا بد أن يأتى بقضـية متفق عليها حتى من الخصوم المواجهين له ؛ فهم يعرفون أن الأعمى لا يستوى مع البصير ، تماماً مثلمـا لا يستوى الظل والحـرور أو الظلمات والنور . إن الفطرة لا تقـبل الخلاف فى هذه الأمور . والعمى ـ كـما نعرف ـ هو عدم الرؤية لمن من شـأنه وحاله أن يرى ، فلا يقول إنسان عن حجر : إن الحجر أعمى ؛ لأن الأحجار لا تبصر .

إذن لا نقول العمى إلا كوصف لمن يفترض فيه أن يرى . وماذا تفعل عدم الرؤية فى الأمر المحس ؟ إن عـدم الرؤية يؤذى الإنسان لأنه كـائن متـحرك . فقـد يقع فى حفـرة أو يصطدم بشىء يؤذيه ، وبإقرار الجـميع نعرف أن الأعـمى تضطرب حركـته ويتعرض للمتاعب ، والذى يحمى الإنسان من ذلك أن يكون مـبصراً أو مستعيناً بمن يبصر حتى يمكن أن يستقبل المرئيات .

وكان العلماء قديماً يظنون أن الإبصار هو نتيـجة خروج شعاع من العين ليذهب إلى الشىء المرئى ونقض هذه القضـية عالم إسلامى هو ابن الهيـثم الذى علم العلماء أن الشعاع إنما يخرج من المرئى إلى عين الرائى بدليل أن الشىء المرئى لا يراه الإنسان فى الظلام . والعمى يمنع العين من استقبال الشعاع ، ولا يختلف أحد فى أن العمى مهلك وضار ومتعب ، والإبصـار مريح . وكأن الحق يقول للخلق : إياكم أن تظنوا أن حياتكم كلها تعتمد على المحيط المحس ، لا ، إن هناك قيماً إن لم يعرفها الإنسان فهو يتعثر ويضطرب ويتخبط .

إذن فمنهج السـماء قد جـاء ليهدى النفس البشرية إلى القيم ، كمـا يهدى النور الحسى الإنسان إلى المحسـات . فإذا كان البصـر هو وقاية للإنسان لتفادى العـقبات ،

فكذلك المنهج هو الذى يبين للإنسان ألا يصطدم بالعقبات فى الأمور المعنوية . والإنسان يحيا بقيمه ، بدليل أن الأعمى قد يجد من يقوده من المبصرين ، ولكنه قد لا يجد هدايته فى هداية مهتد . إذن فالإنسان قد يستغنى عن البصر ، ولكنه لا غنى له عن الهدى ؛ لأن الضلال سيصيبه ، والضلال فى القيم أبلغ وأشد قسوة من الضلال فى الأمور المحسّة .

« قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » هناك تفكر ، وتذكر ، وتدبر . التفكر هو شغل العقل ابتداء بأمر ظاهر ، يريد أن يستنبط منه شيئاً . وعندما يقول إنسان لآخر : فكر فى هذا الأمر . . أى أدر عقلك فى كل ما يتعرض لهذا الأمر . والذى يطلب من آخر التفكير فى هذا الأمر كأنه واثق من أن الذى يتفكر فى أمر لن يصل إلا إلى الرأى الذى قاله مَن عرض عليه التفكر . وأما التذكر فهو أن يصل الإنسان إلى حكم انتهى إليه بالتفكر ثم نسيه ، ويأتى مَن يلفت الذهن إلى ذلك الحكم الذى انتهى منه فكرياً .

إذن فالفكر يأتى بحكم أَولِىّ ناضج . والتذكر يأتى بحكم كان معلوماً للإنسان ولكنه غفل عنه . أما التدبر فهو ألا يكتفى الإنسان بالنظر إلى والجهة الأمور ولكن إلى ما وراء ذلك أيضاً ؛ لأن كل شىء له واجهة ، وقد تخفى الواجهة ما خلفها ، لذلك يطلب الحق من الإنسان أن ينظر إلى أعقاب الأشياء وأقفائها ، أى يدير الأمر على كل جهاته ولا يكتفى بالنظر إلى واجهاتها ، مثلما يشترى الإنسان شيئاً من تاجر أمين ، ويعرض التاجر على المشترى مواصفات الشىء بأمانة ويطلب منه أن يختبر الشىء حسب مواصفاته ، لكن التاجر الغشاش يحاول أن يخفى المواصفات لأنه يريد خداع المشترى .

وعندما يطلب الحق منا أن التفكر والتذكر والتدبر إنما يوقظ فينا المقاييس الحقيقية التى نصل بها إلى المطلوب الذى يريده الله . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ

﴿رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٥١﴾

أى أنذر بالوحى ـ الذى تتبعه ـ هؤلاء الذين يخشون يوم اللقاء مع الله . والإنذار ـ كما نعلم ـ هو إعلام بشىء مخيف قبل وقوعه لنتفادى أن يقع . وما المراد بهؤلاء الذين يطلب الحق من رسوله إنذارهم بالوحى ؟ فى أول الإسلام كان إقبال بعض المؤمنين على العمل الإيمانى ضعيفاً ، ومادام فى قلوبهم إيمان ، ويخشون لقاء الله فالوحى إنذار لهم بضرورة العمل الإيمانى الجاد . كما يجوز أن يكون الإنذار بالوحى لأهل الكتاب ؛ لأنهم يعرفون أن هناك يومًا آخر سيلقون فيه الله . وقد يكون الإنذار لإنسان يؤمن بالبعث ولكنه يشك فى الأنبياء وشفاعتهم ، فهذا الصنف قد يحمله التخويف والإنذار إلى أن يعيد النظر فى قضية الإيمان ويتقبل النبأ الصدق الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولنا أن نأخذ الإنذار بالوحى على أى وجه من الوجوه السابقة . ولكن هل يخاف المؤمن أن يحشر إلى الله ؟ لا . إن المؤمن إنما يخاف أن يحشر مجرداً من الولى والناصر . إذ فى الحقيقة ليس هناك أحد يحمى وينصر من الله ، ولا شفيع يخلص من عذاب الله إلا بإذنه (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وهذا ما يعتقده المؤمنون .

وقد حدد الحق ذلك فى قوله :

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنعام)

إنهم هم المؤمنون الذين آمنوا بالله ، وبرسوله ولكنهم قصروا فى بعض المطلوبات والتكاليف التى ينطوى عليها قوله الحق : (فمن آمن وأصلح) .

هؤلاء المؤمنون عندما يجيئهم الإنذار فهم قد يصلحون من أمورهم خوفاً من الحشر بدون ولى ولا شفيع . المؤمن ـ إذن ـ له أمل أن يكون يوم الحشر فى ولاية الله ورحمته ، وهؤلاء هم من قال عنهم الحق :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وإن كانت الآية الكريمة تتناول وتشمل غيرهم من أهل الكتاب وتشمل وتضم أيضا الذين يؤمنون بالبعث ولكنهم لم يتبعوا أنبياء .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

نعرف أن الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان واستعمره في الأرض ، وجعله طارئاً على هذا الوجود الذي أودع الله له فيه كل ما يلزمه من مقومات حياته وإسعاده .

وأراد الحق من البشر أن يكون فيهم استطراق عبودي بحيث لا يوجد متعال على مستضعف ، ولا يوجد طاغ على مظلوم ، حتى تستقيم حركة الحياة استقامة يعطى فيها كل فرد على قدر ما هيىء له من مواهب . فإذا ما اختل ميزان الاستطراق البشرى ردهم الحق سبحانه وتعالى إلى دليل لا يمكن أن يطرأ عليه شك . والدليل هو أنكم أيها البشر تساويتم في أصل الوجود من تراب ، وتساويتم في العودة إلى التراب ، وتتساوون في موقفكم يوم القيامة للحساب ، فلماذا تختلفون في بقية أموركم ؟ إن التساوى يجب أن يوجد . وهاهوذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على أن تهتدى الأمة وكان يكلف نفسه فوق ما يكلفه به ربه ، فيعاتبه ربه لأنه كان يشق على نفسه حرصا على إيمان قومه .

وقد يظن بعض الناس أن عتاب الله لنبيه لتقصير ، ونرد على هؤلاء : ليفهم الإنسان منكم هذا اللون من العتاب على وجهه الحقيقى ، فهناك فرق بين عتاب لمصلحة المعاتَب ، وعتاب للومه وتوبيخه ؛ لأن المعاتَب خالف وعصى ، ونضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت فى يومك العادى إن نظرت إلى ابنك فوجدته يلعب ولا يذهب إلى المدرسة ولا يستذكر دروسه ، فأنت تعاتبه وتؤنبه لأنه خالف المطلوب منه ، ولكنك إن وجدت ابنك يضع كل طاقته ويصرف ويقضى أوقات راحته فى المذاكرة ، فأنت تطلب منه ألاّ يكلف نفسه كل هذا العناء ، وتخطف منه الكتاب وتقول له : اذهب لتستريح . أنت فى هذه الحالة تلومه لمصلحته هو ، فكأن اللوم والعتاب له لا عليه . إذن قد حُلّ هذا الإشكال الذى يقولون فيه : إن الله كثيراً ما عاتب رسوله ، ونوضح أن الحق قد عاتب الرسول له لا عليه ؛ لأن الرسول وجد طريق الإيمان برسالته يسير سيرا سهلاً بين الضعفاء ، ولكنه شغل نفسه وأجهدها رجاء أن يتذوق المستكبرون المتجبرون حلاوة الإيمان ، وجاء فى ذلك قول الحق :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾

(سورة عبس)

إذن فالعتاب هنا لصالح من ؟ إنه عتاب لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحين يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ ﴾

(سورة التحريم)

إن الآية تشير إلى أمر أغضب النبى صلى الله عليه وسلم ، فامتنع عن بعض ما ترغب فيه النفس البشرية من أمور حللها الله . والعتاب هنا أيضاً لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولشدة حرصه صلى الله عليه وسلم على هداية القوم أجمعين ، كان يحب أن يعامل الطغاة بشىء من اللين ليتألف قلوبهم . ولكن الطغاة لا يريدون أن يتساووا مع المستضعفين ، فقد مرّ الملأ من قريش ووجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خبّاب بن الأرتّ وصهيباً وبلالاً وعماراً وسلمان الفارسى وهم

من المستضعفين ، فقالوا : يا محمد رضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك .

وكأنهم يقولون له : إنك قد اكتفيت بهؤلاء الضعفاء وتركتنا نحن الأقوياء ولن نجلس معك إلا أن تبعد هؤلاء عنك لنجلس ، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ببديهية الإيمان إلا أن قال : ما أنا بطارد المؤمنين . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أن هناك من أمثالهم من قالوا لغيره من الأنبياء مثل قولهم . فقد قال قوم نوح عليه السلام له ما حكاه القرآن الكريم :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة هود)

وحاول بعض من أهل الكفر أن يعرضوا موقفاً وسطاً على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : إذا نحن جئنا فأقمهم من عندك لنجلس معك فإذا قمنا من عندك فاجعلهم يجلسون . ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الرأى حلا وسطاً يمكن أن يقرب بين وجهات النظر ، واستشار صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال عمر : لو فعلت حتى ننظر ما الذى يريدون . وطالب أهل الكفر من أثرياء قريش أن يكتب لهم رسول الله كتاباً بذلك ، وجىء بالدواة والأقلام ، وقبل الكتابة نزل قول الله :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة التى جىء بها ليكتبوا عليها كلاماً يفصل بين جلوس سادة قريش إلى مجلس رسول الله وجلوس الضعفاء أتباع رسول الله . والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما مال إلى ذلك من الكتابة طمعا فى إسلام هؤلاء المشركين وإسلام قومهم بإسلامهم رحمة بهم وشفقة عليهم ، ورأى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ذلك لا يفوت أصحابه شيئا ولا ينقص لهم قدراً فمال إليه فأنزل الله

الآية ونهاه عما همّ به من الطرد ، لا أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أوقع ذلك وطردهم وأبعدهم ، ثم دعا بعد ذلك بالضعفاء فأتوه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يجلس مع المستضعفين ، وإن أحب ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقوم من المجلس قام ، ولكن الله أراده أن يكرم هؤلاء القوم المستضعفين بعد أن نهاه عن طردهم ، وأن يكرمهم سبحانه بما أهيجوا فيه ، وجاء أمر إلهي آخر بألا يقوم رسول الله من مجلسه مع المستضعفين حتى يقوموا هم ، فقال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وعندما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم »(١) .

وبهذا القول الكريم أراد الحق سبحانه وتعالى إكرام الضعفاء والمستضعفين . ويقول سلمان الفارسى وخباب بن الأرتّ فينا نزلت ، فكان ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يقعد معنا ويدنو منا حتى تمس ركبتنا ركبته ، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) فترك القيام عنا إلى أن نقوم فكنا نعرف ذلك ونعجله القيام . أى أنهم هم الذين كانوا يقومون أولاً من مجلس رسول الله ، فقول الحق : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » هذا هو قول الله ـ سبحانه ـ أمر به رسول الله ومأمور به كذلك كل إنسان من بعد رسول الله ، وفى هذا قمة التكريم للدائمين على ذكر الله من المستضعفين ؛ لأنهم أهل محبة الإيمان وهم الذين سبقوا إليه .

---

(١) رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد ورواه الطبرانى ، قال الهيثمى : ورجاله رجال الصحيح .

وهاهوذا أحد خلفاء المسلمين وقد جاءه صناديد العرب الذين أسلموا ، واستأذنوا فى الدخول إليه ، فلم يأذن لهم حتى أذن لضعفاء المسلمين . فورم أنف كل واحد من هؤلاء الصناديد وقالوا :

ـ أيأذن لهؤلاء ويتركنا نحن ؟ لقد صرنا مسلمين . فقال قائل منهم يفهم ويفقه أمر الدين : أكلكم ورم أنفه أن يؤذن لهؤلاء قبلكم ، لقد دعوا فأجابوا ، ودعيتم فتباطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا إلى دخول الجنة وأبطىء دخولكم .

إنّ هؤلاء الضعفاء يريدون بالطاعة وجه الله ، وكلمة « وجه الله » تدل على أن الإيمان قد أشْرِب فى قلوبهم ، وأنهم جاءوا إلى الإيمان فِراراً بدينهم من ظلم الظالمين وطغيان الطغاة الذين كانوا يريدونهم على الكفر والضلال . إنهم قد حلا لهم الإيمان ، وحلا لهم وجه الله ، وحلا لهم أن يؤجل لهم كل الثواب إلى الآخرة .

وحين نسمع قول الحق : « يريدون وجهه » فهذا وصف لله بأنّه ـ جل شأنه ـ له وجه ، ونطبق فى هذه الحالة ما نطبقه إذا سمعنا وصفاً لله ، إننا نأخذ الوصف فى إطار قوله الحق : (ليس كمثله شىء) .

ويطلق الوجه ويراد به الذات ، لأن الوجه هو السمة المميزة للذوات . فأنت إن قابلت أناساً قد غطوا وجوههم واستغشوا ثيابهم وستروا بها رءوسهم فلن تستطيع التمييز بينهم .

ويقال : فلان قابل وجوهَ القوم . أى التقى بالكبار فى القوم . والحق سبحانه وتعالى يقول : (كل شىء هالك إلا وجهه) ، ويقول الحق سبحانه : « ما عليك من حسابهم من شىء » وفى هذا القول حرص على كرامة المستضعفين ؛ فقد يقول قائل :

لقد استجار هؤلاء الضعفاء بالدين حتى يفروا من ظلم الظالمين وليس حباً فى الدين ، فيوضح الحق : ليس هذا عملك ، وليس لك إلا أن تأخذ ظاهر أعمالهم وأن تكل سرائرهم إلى الله .

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنعام)

وكأن الحق يوضح لرسوله : لو كان عليك من حسابهم شيء لجاز لك أن تطردهم ، ولكن أنت يا رسول الله تعلم أن كل واحد مجزيٌّ بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وقد أنزل الله عليك القول الحق : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . إذن فلكل إنسان كتابه . قد سطر وسجّل فيه عمله ويجازى بمقتضى هذا ، ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

نحن هنا أمام « بعضين » : بعض قد استعلى أن يجتمع ببعض آخر مستضعف عند رسول أرسله الله . ويمتحن الله البعض بالفتنة ، والفتنة هى الاختبار . إن بعضاً من الناس يظن أن الفتنة أمر مذموم ، لا ، إن الفتنة لا تذم لذاتها ، وإنما تذم لما تؤول إليه . فالاختبار ـ إذن ـ لا يذم لذاته ، وإنما يذم لما يؤول إليه . وتأتى الفتنة ليُرى صدق اليقين الإيمانى ، وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إن الحق سبحانه يختبر مدى صدق الإنسان حين يعلن الإيمان ، إنه ـ سبحانه ـ يختبرهم بالمحن والنعم ، وقد اختبر الحق الأمم السابقة بالتكاليف والنعم والمحن ويظهر ويبرز إلى الوجود ما سبق أن علمه سبحانه أزلاً ، ويميز أهل الصدق فى الإيمان